مجلة العميد
Journal Homepage: https://alameed.alameedcenter.iq/
ISSN: 2227-0345 (Print) ISSN 2311-9152 (Online)

فلسفة التاريخ عند مرتضى مطهري

محمد مهدي گرجيان [1]

عادل لغريب [2]

١-جامعة المصطفى العالمية/ كلية الحكمة والاخلاق/ قسم الحكمة الاسلامية والعرفان، ايران؛ **mm.girjian@yahoo.com**
دكتوراه فلسفة/ استاذ

٢-جامعة المصطفى العالمية/ كلية الفلسفة الاسلامية/ قسم الحكمة والدراسات الدينية، ايران؛ **bauha5@yahoo.fr**
دكتوراه فلسفة/ أستاذ مساعد

تاريخ الاستلام:
١/ ١/ ٢٠٢٠
تاريخ القبول:
٢٨/ ٤/ ٢٠٢١
تاريخ النشر:
٣٠/ ٩/ ٢٠٢٣

الكلمات المفتاحية:
التاريخ، المجتمع، فلسفة التاريخ، القرآن، المطهري.

ملخص البحث:

إنّ فلسفة التاريخ علمٌ يُعنَى بالتطورات والتحولات التي تنقل المجتمع من مرحلةٍ إلى أخرى، والقوانين المتحكمة فيها. يذهب الأستاذ مرتضى مطهري إلى أنّ البحث حول المجتمع – باعتباره مقدمةً – هو شرطٌ أساسيٌ وضروريٌ من أجل فهم فلسفة التاريخ. إنّ المجتمع على ضوء الرؤية القرآنية هو عبارةٌ عن مركبٍ حقيقيٍ وأصيلٍ كما أنّ الفرد يحظى بالأصالة أيضًا. وللمجتمع كذلك سننٌ وقوانينٌ خاصةٌ به. لكن لا يعني ذلك أنّ الأفراد مجبورين في قباله. وحيث أنّ الإنسان نوعٌ واحدٌ، فالمجتمعات البشرية هي نوعٌ واحدٌ أيضًا، وذلك نتيجة الفطرة.

إنّ حركة التاريخ تقع تحت ظل قوانين العلية وهي تتجه باستمرار نحو التكامل والتطور، كما أنّها لا تتنافى مع حرية الإنسان. وعلى عكس النظريات المطروحة حول فلسفة التاريخ فإنّ الأستاذ مطهري يرى أنّ الفطرة الإلهية للإنسان بمعية الحركة الجوهرية هي الأساس الأول لشخصية الإنسان، وتكتمل بفعل عوامل المحيط. ومحرك هذا التكامل والتطور، هو الخصائص الإنسانية المتمثلة في قابلية التعاطي المعرفي بالقلم والبيان، وحفظ التجارب والخبرات، والقوة العقلية والفكرية والإبداعية، والنزعة الذاتية والعلاقة الفطرية للإبداع والتجديد. ومستقبل البشرية والتاريخ في رؤية المطهري على عكس بعض الرؤى يبعث على التفاؤل والمعنوية وحكومة الإسلام وكل ذلك يستند إلى الفطرة.

السنة(١٢)-المجلد (١٢)
العدد (٤٧)
ربيع الاول ١٤٤٥هـ. أيلول ٢٠٢٣م

DOI:
10.55568/amd.v12i47.13-42

CC BY NC

History Philosophy of Murtadha Mutahhari

Muhammed Mahdi Karjyan[1]

Adel Laghrayb[2]

1- Al-Mustafa international University /College of Wisdom and Ethics / Dept of Islamic Wisdom and Gratitude, Iran; **mm.girjian@yahoo.com**

PhD in Philosophy/Professor

2- Al-Mustafa international University/ College of Islamic Philosophy/ Dept of Wisdom and Religious Studies, Iran; **bauha5@yahoo.fr**

PhD in Philosophy/ Assistant Professor

Received:

1/1/2020

Accepted:

28/4/2021

Published:

30/9/2023

Keywords:

History, society, philosophy of history, Qur'an, Motahhari

Al-Ameed Journal

Year(**12**)-Volume(**12**) Issue (**47**)

Rabi' Al-Awwal 1445 AH

September 2023 AD

DOI:

10.55568/amd.v12i47.13-42

Abstract

The philosophy of history is a science concerned with the developments and changes that transform a society from one stage to another and with the laws that govern these changes. Professor Mortadha Motahhari focuses on the society as an introduction to fully study the philosophy of history. Both the society and the individual are fundamental in the Qur'anic perspective. Society also has its own laws and regulations. This does not imply that individuals are forced to abide by these laws. Since human beings are one kind, human societies are also one kind as a result of the innate nature, al-fitrah. The movement of history falls under the laws of 'cause and effect' and moves towards evolution and development. In addition, it does not contradict human freedom. In contrast to the existing theories of the philosophy of history, Professor Motahhari believes that the divine innate nature, al-fitrah, of human is combined with the substantial motion, al-harakah al-jawhariyyah, that is the fundamental basis of the personality of the individual whose evolution depends on various factors in the environment the individual resides. The key drivers of this evolution is the set of individual characteristics including the ability to express knowledge in writing and rhetoric, the preservation of experiences, cognitive and creative ability, subjective tendency and the innate nature of creativity and innovation. Unlike much of the views, the future of mankind and history as suggested by Mutahhari promote optimism, spirituality and Islamic governance that count on the innate nature, al-fitrah.

أ. مقدمة:

يتمحور موضوع فلسفة التاريخ حول مجموعةٍ من المسائل التي ترتبط بمعنى التاريخ ومبدأ السببية والعلية في الحوادث التاريخية والقوانين التي تحكمها والاتجاه في التاريخ، وقد أفضت الرؤى المختلفة التي قدمت حول هذه المسائل إلى تبلور جملةٍ من النظريات المختلفة والمتباينة في فلسفة التاريخ.

إنّ فلاسفة التاريخ يسعون وراء الكشف عن القوانين التي تتحكم بالظواهر والتحولات التاريخية، إذْ ظهرت مجموعةٌ من المدارس الفلسفية التي تعنى بدراسة ومحاولة فهم السير التاريخي وتحديد اتجاهه.

ومن بين الرؤى والنظريات التي طرحت في هذا المجال ما عرضه الأستاذ مرتضى مطهري – باعتباره أحد رواد الفكر الاسلامي في عالمنا المعاصر – حول فلسفة التاريخ من زاويةٍ اسلاميةٍ قرآنيةٍ.

إنّ الهدف من المقال الحالي هو تقديم دراسة تحليلية وتوصفية مختصرة عن رؤى الأستاذ مرتضى مطهري (١٩١٩ – ١٩٧٩م) في مجال فلسفة التاريخ من زاوية قرآنية، فقد عرض الأستاذ مجموعة من الآراء القيّمة المرتبطة بموضوع فلسفة التاريخ بطريقةٍ مبتكرةٍ ورائعةٍ من حيث الشكل والمضمون والمنهجية وبتوجه قرآني اعتمد فيه على التحليل والابداع.

لقد كان الأستاذ مطهري يعتقد أنّ المجتمع والتاريخ يرتبطان ويشتركان في الكثير من الأمور، وقد رأى أنّ دراسة موضوع المجتمع ضروري ومقدَمٌ على بحث مسألة التاريخ، لهذا سعى في بداية الأمر إلى الإجابة على الأسئلة الواردة حول المجتمع، مثل: ما هو المجتمع؟ هل الإنسان اجتماعي بالطبع؟ وهل الفرد أصيل أم المجتمع؟ كيف هي علاقة المجتمع مع العادات؟ هل الفرد مجبور في قبال المجتمع؟ ثم عنى بالردّ على الأسئلة المتعلقة بالتاريخ وفلسفة التاريخ.

يعرّف الأستاذ المطهري فلسفة التاريخ – مثلما سيأتي – على أنها العلم بالتطورات والتحولات التي تنقل المجتمع من مرحلة إلى أخرى، والقوانين المتحكمة في هذه التطورات والتحولات. وبعبارة أخرى العلم بصيرورة المجتمعات لا بكينونتها.

ومن الواضح ــ بحسب هذا التعريف ــ أنّ البحث حول المجتمع ما هو إلّا مقدمة ومدخل وركن أساسي لفهم فلسفة التاريخ في رؤية الأستاذ مطهري، بل إنّه شرط أساسي في هذا البحث.

والجدير بالذكر هو أنّ دراسة المجتمع والقوانين ومبادئ العلية الحاكمة عليه، لديها مكانة خاصة في فلسفات التاريخ الأخرى، لكن في نظرية الأستاذ مطهري يغدو بحث المجتمع وقوانينه وسننه الحاكمة عليه والعلية في التاريخ شرطًا أساسيًا للولوج في بحث فلسفة التاريخ.

ب.المجتمع:

بدايةً يعرّف الأستاذ المطهري المجتمع بمجموعةٍ من الأفراد المرتبطين فيما بينهم بأنظمةٍ وسننٍ وآدابٍ وقوانين خاصةٍ، ويذكر أنّ هذه الاجتماع ليس من قبيل اجتماع مجموعةٍ من أشجار البستان أو مجموعةٍ من الغزلان والحيوانات، فحياة الإنسان ذات ماهيةٍ اجتماعيةٍ، أي أنّ "الاحتياجات البشرية، والعلاقات الإنسانية الخاصة، تربط الأفراد بالمجتمع، وتجعل حياتهم مشتركةً إلى حدٍ كبيرٍ بحيث يمكن وصف هؤلاء الأفراد بالمسافرين الذين يمتطون وسيلةَ نقلٍ واحدةٍ، ويتجهون نحو هدفٍ واحدٍ، ويشتركون معًا في بلوغ الهدف المنشود، كما يشتركون في الفشل الذي قد يصيبهم في طريق تحقيق ذلك الهدف[١]."

وهل أنّ نشأة الحياة الاجتماعية هي نتيجة الاضطرار - أي أنّها تخضع لعوامل خارج وجود الإنسان[٢]، أم بسبب الانتخاب والاختيار - أي أنّ القوة العقلية والفكرية هي التي هدته للتعاون وتكوين الجماعة[٣]، أم بعلة الطبيعة الإنسانية - أي نتيجة الميل الذاتي والطبيعة الداخلية للإنسان -، فإنّ المطهري يشير استنادًا إلى بعض آيات القرآن الكريم بأنّ الحياة الاجتماعية هي ذاتيةٌ فطريةٌ. ومن ذلك قوله تعالى:

١. ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ (**الحجرات ١٣**). فهذه الآية تتضمن ـ فضلاً عن التعاليم الخلقية ـ الفلسفة الاجتماعية لخلقة الإنسان وأنه خُلق بحيث يشكل المجتمع وينتسب إليه. ففي ذيل هذه الآية يقول المطهري:" إنّ الإنسان خلق بشكل يؤدي إلى تشكيل الشعوب والقبائل. والتعارف الذي هو أساس للحياة الاجتماعية، لا يمكن أن يتم من دون

١ مطهري، مرتضى. المجتمع والتاريخ . ترجمة شب، محمد علي أذر (طهران: مؤسسة البعثة، ١٤٠٣هـ)، الجزء الأول ١٢.
٢ الفارابي، أبو نصر محمد. آراء أهل المدينة الفاضلة. تحقيق نادر، ألبير نصري. د.ط (بيروت: دار المشرق، ١٩٩١م)، ١٥٣.
٣ كريب، إيان النظرية الاجتماعي. ترجمة غلوم، محمد حسين (الكويت: عالم المعرفة، ١٩٩٩م)، ٩٩.

الانتساب إلى هذه المجموعات البشرية. فهذا الانتساب الذي ينطوي على خصائص الاشتراك والاختلاف بين الأفراد هو أساس التعارف، والتعارف هو أساس الحياة الاجتماعية."[٤]

٢. ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ (الفرقان ٥٤). إنّ صلة القرابة النسبية والسببية هي من المسائل التي ولدت مع الإنسان وعُجنَت في فطرته وخلقته، ولذلك نجد الآية قد عطفت مسألة النسب والمصاهرة على خلق الإنسان التي جاءت في مرتبة متقدمة، وعلى هذا الأساس تكون صلة القرابة والنسب والمصاهرة مأخوذة في خلق الانسان ووجوده، ونتيجة لذلك ستكون الحياة الاجتماعية باعتبارها علاقات وروابط سببية ونسبية بين الأفراد قد أخذت فيه أيضا. ومن هنا نجد المطهري يقول:" هذه الآية تشير إلى الروابط النسبية والسببية باعتبارها أساس ارتباط الأفراد ببعضهم، وإنها جزء من طبيعة خلقة الإنسان، أودعت في كيانه لحكمة وغاية عامة[٥]."

٣. ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (الزخرف ٣٢). فالآية الكريمة ـ حسب الأستاذ مطهري ـ تتحدث عن اختلاف القابليات والمؤهلات وتفاوتها بين أبناء البشر، ولو كانت الكفاءات والقابليات متشابهةً ومتساويةً تمامًا لما حدث احتياجٌ متبادلٌ بين الأفراد، ولما تم التعاطي بينهم. لقد خلق الله البشر متفاوتين ومختلفين في الكفاءات والإمكانات الجسمية والروحية والعقلية والعاطفية، ورفع بعضهم فوق بعض درجات في مجالات معينة، وبهذه الطريقة جميع الناس محتاجين لبعضهم البعض، ومندفعين إلى التعاطي فيما بينهم وبذلك تشكل الحياة الاجتماعية. فهذه الآية الكريمة تدل أيضا على أن الحياة الاجتماعية للإنسان أمر طبيعي لا انتخابي ولا اضطراري[٦].

والجدير بالذكر أنّ السيد الطباطبائي قد أشار في تفسيره الميزان إلى هذه الآيات معتبرًا إياها منبئةٌ أحسن الإنباء عن أنّ النوع الإنساني هو نوعٌ اجتماعيٌ وأنّ هذه المسألة لا تحتاج إلى كثير من العناء من أجل اثباتها، فكل فردٍ من النوع الانساني مفطورٌ على ذلك. وما فتئ

٤ مطهري، المجتمع والتاريخ، الجزء الاول ١٤و١٥.
٥ مطهري، الجزء الاول ١٥.
٦ مطهري، الجزء الاول ١٦.

الإنسان يعيش في حال الاجتماع منذ الزمن الغابر، وهذا ما يحكيه التاريخ والآثار المشهودة الحاكية عن أقدم العهود التي كان هذا النوع يعيش فيها ويحكم على هذه الأرض[٧].

والنتيجة هي أنّ الحياة الاجتماعية على أساس العلاقات الإنسانية التي تنشأ عن طريق العقد، ليست مفروضةً وأمرًا خارجًا عن طبيعة الإنسان، بل لها جذور في الحاجات الطبيعية والفطرية للبشر إلى الاجتماع وإقامة العلاقات الاجتماعية بين الناس. كما أنّ ظاهرة المجتمع الإنساني تخضع إلى سنن وقوانين وتحولات وصعود ونزول وهدف وغاية معينة، كما سيتضح فيما بعد.

ج. أصالة وعينية المجتمع وأصالة الفرد

يعتبر بحث أصالة الفرد أو أصالة المجتمع أو أصالة كليهما من الأبحاث التي لم تكن تحظى بالاهتمام من قبل المفكرين المسلمين، ولعل أول من أثار هذه المسألة في العصور المتأخرة بصورة صريحة ومفصلة وبهذا العنوان "أصالة المجتمع" هو السيد محمد حسين الطباطبائي في تفسيره الميزان في الجزء الرابع ذيل الآية ٢٠٠ من سورة آل عمران، ثم توسع فيه تلامذته كالأستاذ المطهري والأستاذ مصباح اليزدي والشيخ عبد الله الجوادي الآملي بالبحث والمقارنة والمناقشة*.

إنّ المراد من الأصالة في هذا البحث هو التحقق العيني في الخارج، وذلك في قبال الاعتباري الذي يكون متحققا فقط باعتبار المعتبر. وبعبارة أخرى فإن الأصالة لو تكون للفرد فإنّ معنى ذلك أنّ الفاعل والمحرك في كافة المجالات هو إرادة الفرد وميوله ورغباته ومنافعه، ومن هنا فإن الفرد يؤسس النظم ويضع قوانين حتى يتمكن على ضوءها من بلوغ مقاصده وأهدافه، وأما المجتمع فليس في هذه الحالة سوى مجرد وسيلة وأداة لتلبية حاجاته ومتطلباته. وأما لو تكون الأصالة للمجتمع فإنّ المراد من ذلك هو أنّ حياة الفرد تابعة وخاضعة للمجتمع الذي يعيش فيه، فالذي له تحقّق وواقعية وعينية في الخارج هو المجتمع والإنسان الاجتماعي لا الإنسان المستقلّ عن الآخرين، وما نراه في الواقع هم الناس

٧ محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٣٩٤هـ)، الجزء الرابع ٩٢.

* لقد كانت هذه المسألة مبثوثة بين ثنايا الأبحاث الاجتماعية التي تطرق إليها كل من "الفارابي" في أوخر القرن الثالث في "آراء أهل المدينة الفاضلة" وإخوان الصفاء في القرن الرابع في "رسائل إخوان الصفاء"، والخواجة نصير الدين الطوسي في القرن السابع في "الأخلاق الناصرية"، وابن خلدون في القرن الثامن في "مقدمة ابن خلدون"

الاجتماعيون الذين تربطهم علاقات وروابط اجتماعية ويحيون بصورة جماعية. فعلى سبيل المثال، تعتبر الأرض جزءاً من المنظومة الشمسية ومختلف الظواهر التي تحدث فيها داخلة ضمن النظام العام لتلك المنظومة، وهكذا الأمر بالنسبة إلى الإنسان فإنّ كلّ فرد من أفراد النوع الإنساني إنّما هو جزء من المجتمع وتابع له، وإذا ما كانت للفرد رؤية أو إرادة أو غنى أو ما شابه ذلك، فليس ذلك إلاّ انعكاساً لصدى المجتمع والعوامل الاجتماعية. إنّ مثل الفرد في المجتمع الإنساني مثل الخلية في الجسم، إذ من الصحيح انّ للخلية حياة ونشوءاً وشكلاً خاصاً بها، ولكنّها في نفس الوقت تابعة وخاضعة في حالات الاعتدال والانحراف والصحّة والمرض إلى البدن التي تُعد جزءاً منه، وهكذا الأمر بالنسبة إلى الفرد في المجتمع إذْ إنّه يسير ويتحرك بالاتجاه الذي يسير ويتحرك فيه المجتمع[٨].

يعتقد الأستاذ مطهري أن المجتمع هو مركب حقيقي إِنَّه مزيج من الأرواح والأفكار والعواطف والإرادات والرغبات وليس من الأبدان والأجساد. وعليه فهو يرى أنّه مزيج ثقافي لا مزيج من الأبدان.

وحتى يتم بلوغ هذه النتيجة التي توصل إليها الأستاذ مطهري، لابد من عرض عدة نظريات حول أنواع التركيب وهي:

١. المركب الاعتباري: أي أنه لم يحدث أي تركيب في الواقع، وإنما يكون من افتراض الذهن وجعله.

٢. المركب الصناعي: وهو كالآلة إذْ أنها تركيب من الأجزاء، غير أنّ أجزائها لا تفقد هويتها في الكل لكنها تفقد استقلال الأثر، ويحصل تأثيرٌ جديدٌ غير تأثير كلّ جزءٍ من الأجزاء المشكلة للآلة. والمجتمع كذلك، إنه مكونٌ من مرافقٍ ومؤسساتٍ أصليةٍ وفرعيةٍ، مترابطة مع بعضها، وكل تغييرٍ يطرأ على واحدةٍ من هذه المؤسسات الثقافية أو الدينية أو الاقتصادية أو السياسية أو ... يؤدي إلى تغيير في المرافق والمؤسسات الأخرى. والحياة الاجتماعية تظهر باعتبارها أثرًا قائمًا بكل الماكنة الاجتماعية، من دون أن يفقد الأفراد هويتهم في المجتمع العام وفي المرافق والمؤسسات الاجتماعية.

٨ السبحاني، جعفر. الفكر الخالد في بيان العقائد، ط١ (قم: مؤسسة الامام الصادق ﷺ، ١٤٢٥هـ)، الجزء الثاني ٣٢٤و ٣٣١.

٣.المركب الثقافي من أنواع المركبات الطبيعية: هو مزيجُ الأرواح والأفكار والعواطف والرغبات إذْ لا يوجد لا شبيه أو نظير، وهو غير التركيب الصناعي أو تركيب المواد الطبيعية أو الكيميائية.

٤.المركب الحقيقي: وهو تركيب بين بني البشر الذين يفتقدون الهوية الإنسانية قبل الوجود الاجتماعي، فهم أوعية خالية مستعدة لقبول الروح الجماعية، وهم حيوانات محضة لها استعداد تقبل الإنسانية. والروح الجماعية هي التي تملأ تلك الأوعية، وتمنح الفرد شخصيته[٩].

يعتقد الأستاذ مطهري بصحة النظرية الثالثة استناد إلى القرآن الكريم، إذْ يقول:" النظرية الثالثة تعتقد بأصالة الفرد وأصالة المجتمع معا. فأصالتها الفردية تتجلى في عدم إيمانها بانصهار أجزاء المجتمع – أي الأفراد – في الوجود الاجتماعي، وعدم اعتقادها أن المجتمع موجود وحيد يشبه المركبات الكيماوية. وأصالتها الاجتماعية تظهر في قولها أن تركيب الأفراد في المجالات الروحية والفكرية والعاطفية هو نوع من التركيبات الكيماوية يجد فيه الأفراد هوية جديدة في هوية المجتمع، وإن لم يكن للمجتمع هوية منفردة"[١٠] بناءً على هذا فإن حقيقةً جديدةً حيةً تبرز على أثر تفاعل أجزاء المجتمع، تتمثل في الروح، والشعور والوجدان والإرادة والتطلعات الجديدة، فضلاً عمَّا للأفراد من وجدان وإرادة وأفكار ومشاعر فردية. وتلك الروح الجديدة تكون لها الغلبة على الروح الفردية.

وعليه فإنّ للمجتمع وجود في الواقع، وله آثار واقعية ومنحنى تصاعدي وتنازلي، لكن ليس بمعنى أنّ للمجتمع وجود زائد على وجود الأفراد أو أن الأفراد يذوبون في المجموع ويفقد الأفراد والبشر هويتهم، بل أن التأثير والتأثر المتبادل في الأرواح والعواطف والأفكار والرغبات وغير ذلك هو أمر قطعي.

والذي يؤيد هذه النظرية مجموعة من الآيات:

١. ﴿ **وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ** ﴾ (**الأعراف ٣٤**).

إن القرآن الكريم ـ كما يعتقد الأستاذ مطهري ـ يرى أن للأمم والمجتمعات والحضارات – وليس للأفراد بما هم أفراد – مصيرًا مشتركًا، وحياةً وموتًا، وصحيفة أعمالٍ مشتركة، وفهمًا وشعورًا وعملًا،

٩ السبحاني، الجزء الثاني ١١١و١١٢.
١٠ مطهري، المجتمع والتاريخ، الجزء الاول ٢٠.

وطاعةً وعصيانًا، ومن الواضح أنّ لا ينسب ذلك للمجتمع بينما لا يكون له وجودٌ حقيقيٌ وعينيٌ.

كما أن الأستاذ مطهري يرى أن الآية: ﴿ **كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا** ﴾ (الجاثية ٢٨)و﴿ **زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ** ﴾ (الأنعام ١٠٨) أيضا تؤيد هذه الحياة ويعتقد أن المجتمع والأمة وقع مورد الخطاب وله إرادة واختيار، يعني أن للأمة كيانا بذاته ووجودا حقيقيًا وشعورا واحد ومعايير خاصة وآلية تفكير معينة.

٢. ﴿ **وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ** ﴾ (غافر ٥). وقد جاء توضيح الأستاذ مطهري للآية كالتالي: "هذه الآية تتحدث عن عزيمة وإرادة اجتماعية سلبية، فالكلام عن عزيمة اجتماعية لمعارضة الحق، وعن العذاب العام الذي ينزل بالمجتمع نتيجة هذه العزيمة الاجتماعية. والقرآن الكريم يتحدث في بعض آياته عن عمل فرد وينسبه إلى جميع مجتمع ذلك الفرد، كما ينسب عمل جيل معين إلى الأجيال التالية."[١١]، نظير قصة ثمود التي عقر الناقة فيها فرد واحد لكن القرآن ينسبه للقوم جميعًا.

والجدير بالذكر أنّ النظرية القرآنية حول أصالة المجتمع شبيهة – كما يقول أحد العلماء – ببعض النظريات الاجتماعية نظير النظرية التي طرحها دوركيم إذْ أنه يرى أنّ للمجتمع تشخصًا ووجودا وحياة وأصالة، مع وجود اختلاف بين النظريتين، إذ أنّ الأخير يميل كثيرا نحو أصالة المجتمع إلى الحدّ الذي يرى فيه اعتبارية الفرد، ما يجعله مهمشا وغير مستحق للاهتمام والعناية، بينما تؤكد الرؤية القرآنية علاوة على الاعتقاد بأصالة المجتمع على أنّ للفرد واقعية واستقلالا واصالة واختيارًا[١٢].

هذا، وقد خضعت هذه الآراء إلى العديد من المناقشات التي أثارها "الأستاذ محمد تقي مصباح اليزدي[١٣]" في كتابه "المجتمع والتاريخ في رؤية القرآن"، لكن نظرا لوسعة هذا البحث وحجم هذه المقالة فسيتم الاقتصار على ذكر آراء الأستاذ مطهري حول هذه المسألة.

١١ مطهري، المجتمع والتاريخ الجزء الأول ٢٢.
١٢ السبحاني، الفكر الخالد في بيان العقائد، الجزء الثاني ١١٥.
١٣ محمد تقي مصباح اليزدي، المجتمع والتاريخ في رؤية القرآن، ط٣ (طهران: مؤسسة الطبع والنشر الدولية، ٢٠٠٠م)، ٩٨.

د.المجتمع والسنن:

إنّ للسنن تاريخ عريق في الفكر الاسلامي[١٤]* غير أنّ ذلك لم يمنع من ازدهار ابحاثها خلال القرنين الأخيرين، فلا يكاد يخلو منها كتاب من كتب التفسير أو الفكر العام ذي الصلة بقضايا المجتمع والتغيير وفلسفة التأريخ. فعلى صعيد التفسير ضمّت المساهمات التأسيسية لعلماء من قبيل محمّد عبده (ت١٩٠٥م) وعبد الحميد بن باديس (ت١٩٤٠م) ومحمد حسين الطباطبائي (ت١٩٨٢م) ومحمد الطاهر بن عاشور (ت١٩٧٣م) بحوثاً لامعة في هذا المجال[١٥]. أمّا على مستوى الفكر الاجتماعي وفلسفة التأريخ، فمن الحريّ الإشارة إلى المحاولة الرائدة التي قام بها الأستاذ عبد الحميد صديقي (ت١٩٧٨م) في كتابه فلسفة التاريخ والتي كتبت بالانكليزية وصدرت مطلع الخمسينيّات لتكون بمنزلة البذرة التأسيسيّة لهذا النحو من التنظير في ثقافة الإسلاميّين المعاصرة[١٦].

وفي الخمسينيات كذلك جاءت جهود الاستاذ مالك بن نبي (ت١٩٧٣م) في مختلف كتبه ومؤلفاته تكريسًا لهذا النحو من الدراسات في هذا المضمار[١٧]، وقد ألف الدكتور عماد الدين خليل كذلك كتابه التفسير الإسلامي للتأريخ[١٨]. ثمّ جاءت دراسات السيّد محمّد باقر الصدر(ت١٩٨٠م)[١٩] المعروفة بعنوان السنن التأريخية في القرآن، وقد صدرت بعد ذلك عشرات الكتب ومئات البحوث في هذا الاتجاه في مشرق العالم الإسلامي ومغربه، وبلغات مختلفة، وأقميت العديد من المؤتمرات في هذا المضمار، حتّى غدت ثقافة السنن من أكثر العناصر ذيوعاً واستقراراً في ثقافة الإسلاميّين المعاصرة.

---

١٤ الشريف الرضي، ابو الحسن السيد محمد بن الحسين. نهج البلاغة. لصالح، صبحي، ط٥ (قم، ايران: مؤسسة دار الهجرة،د.ت) ١٦٩.

١٥ جواد علي كسار، التوحيد: بحوث تحليلية في مراتبه ومعطياته تقريراً لدروس السيد كمال الحيدري، ط٦ (الامارات: دار فرقد، ٢٠٠٧م)، الجزء الثاني ١٦٥.

١٦ عبد الحميد صديقي، فلسفة التاريخ. ترجمة الجوادي،كاظم . ط٢ (الكويت، ١٩٨٠م).

١٧ مالك بن نبي، شروط النهضة، د.ط. (دمشق: دار الفكر، د.ت)

١٨ عماد الدين خليل، التفسير الإسلامي للتأريخ، ط٤ (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٩٨م).

١٩ محمّد باقر الصدر، المدرسة القرآنية (بيروت: دار التعارف، ١٤٠٠هـ)

* علاوة على القرآن الكريم فإن هنالك نصوص كثيرة تكشف عن الرؤية السننية التاريخية ومن ذلك العهد الذي كتبه أمير المؤمنين علي ﷺ إلى مالك الأشتر إذْ أنها تتضمن فقرات عن قوانين الدول وأسرار انهيارها، كما أنه يقول في نهج البلاغة: " إن في سلطان الله عصمة لأمركم، فأعطوه طاعتكم غير مُلَوَّمة ولا مستكره عليها... والله لتفعلن أو لينقلن الله عنكم سلطان الإسلام ثم لا ينقله إليكم أبدا حتى يأرز (يرجع) الأمر إلى غيركم " وقوله: " وليس شيء أدعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته من إقامة الظلم".

والأستاذ المطهري هو أحد المفكرين البارزين الذين طرحوا هذه المسألة وعالجوها من جوانب مختلفة، إذْ يرى أنّ المجتمع إذا كان له وجود حقيقي -كما مر- فحتما سيخضع إلى قوانين وسنن خاصة به. وعلى هذا الأساس يقول: "لو قبلنا النظرية القائلة بأصالة المجتمع والفرد معًا لكان أولا للمجتمع قوانين وسنن مستقلة عن أفراده باعتبار أنّ للمجتمع حياة مستقلة عن الحياة الفردية، مع أنّ هذه الحياة الاجتماعية لا تملك حياة منفصلة بل موزعة بين الأفراد وذائبة فيهم. ولأضحى ثانيا للفرد استقلال نسبي إذ أنّ الحياة الفردية، والفطرة الفردية، والمكتسبات الفردية من الطبيعة، لا تذوب بأجمعها في الحياة الاجتماعية، وإنْ كان الأفراد بموجب هذه النظرية يفقدون هويتهم الفردية المستقلة، في الإطار الاجتماعي، ولو بشكل نسبي... من هنا فالإنسان خاضع لقوانين علم النفس وقوانين علم الاجتماع معا"[٢٠].

ويستشهد الأستاذ على صحة ما ذهب إليه في هذا الموضوع بالآيات التالية:

١. ﴿ **فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ الأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً** ﴾ (**فاطر ٤٣**)، يقول حول ذلك:" القرآن الكريم يرفض بشدة النظرة العبثية إلى التاريخ ويشدد على وجود قواعد ثابتة دائمة لمسيرة الأمم والجماعات"[٢١]. فالسنة الاجتماعية لا تجري على أساس الصدفة، وإنما هي ذات طابع موضوعي لا تتبدل ولا تتحول ولا تتخلف في الحالات الطبيعية الاعتيادية، كما أنّها مرتبطة بالله وخاضعة لتأثيره وحكمته وتدبيره. والهدف منها هو تربية الانسان وتوعيته للعمل وفقها مع مختلف الظواهر الاجتماعية والأحداث التاريخية.

٢. ﴿ **إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ** ﴾ (الرعد ١١). فالآية تربط سنة التغيير بإرادة الإنسان واختياره، ومن هنا فإنّ الأستاذ مطهري يقول: "القرآن يشير إلى مسألة تربوية هامة في حقل القوانين التي تحكم التاريخ حين يؤكد أنّ البشرية هي التي ترسم بيدها مصيرها عن طريق ما تقوم به من أعمال صالحة أم طالحة. وهذا يعني أنّ النظرية القرآنية تذهب إلى أن قوانين المسيرة البشرية ما هي إلاّ سلسلة من ردود الفعل لما تفعله الأقوام والجماعات. من هنا نفهم أن النظرية القرآنية تؤكد على وجود قوانين ونواميس كونية ثابتة

٢٠ مطهري، المجتمع والتاريخ، الجزء الأول ٢٤.
٢١ مرتضى مطهري، نهضة المهدي في ضوء فلسفة التاريخ، ط٢ (بيروت: دار التيار الجديد، ٢٠٠٦هـ)، ٣٩و٤٠.

لمسيرة التاريخ، كما تؤكد في الوقت ذاته على دور الإنسان وحريته واختياره.[٢٢]".

٣. ﴿ **وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ....عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا** ﴾ (الاسراء ٤-٨). وتوضيح الأستاذ مطهري حول "إن عدتم عدنا"، فمع أنّ المخاطب هو القوم والأمة وليس الفرد، لكن هذا الآية تشير إلى عموم وسننية القوانين الحاكمة على المجتمعات[٢٣].

وبهذا يكون القرآن الكريم قد كشف النقاب عن وجود سنن وقوانين اجتماعية وعرض العديد منها، بل ودعا إلى اكتشافها ودراستها، وهذا من أجل أنْ يتعرف عليها الإنسان ويكون فاعلا وممسكا بزمام الحركة التاريخية ومختلف الظوهر الاجتماعية. ومن هنا يبدو جليًا أنّ الاستاذ المطهري قد اعتبر أنّ الرؤية القرآنية تنظر إلى المجال الاجتماعي والتاريخي - مثله مثل بقية المجالات الكونية الأخرى كالمجال الفيزيائي والبيولوجي وغيرهما - تحكمه مجموعة من القوانين والسنن العامة.

والجدير بالذكر أنّ المطهري يرى أنّ ابن خلدون (ت١٤٠٦م) في مقدمته قد يكون أوّل من صرح بوجود سننٍ وقوانين تتحكم في المجتمع مستقلةً عن السنن والقوانين الخاصة بالأفراد وبوجود شخصية وطبيعة وواقعية للمجتمع[٢٤].

ج.جبر واختيار الفرد في قبال المجتمع:

ذُكر سابقًا أنّ الأستاذ مطهري بناء على النظرة القرآنية يعتقد بأصالة الفرد والمجتمع معًا، وعليه ينقدح في الذهن هذا التساؤل وهو: هل أنّ الفرد مجبور في مقابل المجتمع أم أنه مختار نحوه ؟ وإذا كان مختارا فهل يتأثر بالمجتمع أم لا؟

يرى الأستاذ مطهري أنّ الفرد غير مجبور في مقابل المسائل الإنسانية والاجتماعية وإن كان للمجتمع بموجب هذه الرؤية قوة تتغلب على قوة الأفراد.

٢٢ مطهري، نهضة المهدي في ضوء فلسفة التاريخ ٤٠.
٢٣ مطهري، المجتمع والتاريخ، الجزء الأول ٢٧.
٢٤ مطهري، الجزء الأول ٢٥.

إنّ الجبر الدوركايمي - الذي تغلب عليه أصالة المجتمع - ناتج عن إهمال الفطرة الإنسانية الناشئة عن تكامل الإنسان الجوهري في إطار الطبيعة. هذه الفطرة تمنع الإنسان نوعًا من الحرية والقدرة على الوقوف بوجه الضغوط الاجتماعية. من هنا كانت العلاقة بين الفرد والمجتمع أمرًا بين أمرين، والشاهد على ذلك هو آيات الذكر الحكيم. إذْ مع أنه ينسب إلى المجتمع طبيعةً وشخصيةً عينيةً، وقوةً وحياةً وموتًا وأجلًا ووجدانًا وطاعةً وعصيانًا، يصرح بإمكانية تمرد الفرد على ضغوط المجتمع. والقرآن يستند في ذلك إلى فطرة الله ﴿ **فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله** ﴾(الروم ٣٠)وفي الآية المعروفة بآية الذر يقول تعالى مشيرا إلى هذه الفطرة الإنسانية: ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ** ﴾(الأعراف ١٧٢-١٧٣). فهذه الكريمة ترفض رضوخ الأفراد إلى معايير الشرك بحجة سيادتها في المجتمع، وبحجة شرك الأجيال السالفة، إذ ليس هناك جبر اجتماعي مفروض على الفرد مع وجود الفطرة التي أودعها الله في ذرية بني آدم[٢٥].

ح.وحدة وكثرة المجتمعات من حيث الماهية:

إنّ الإشكالية المطروحة في هذه المسألة تتمثل في جواب التساؤل التالي: هل أنّ كافة المجتمعات يمكن أنْ تكون لها أيديولوجية واحدة أم أنّ التنوع الماهوي للمجتمعات يقتضي تنوع الإيديولوجيات؟

وبما أنّ الأستاذ مطهري في يرى أنّ الإنسان نوعٌ واحدٌ ويعتقد أنّه اجتماعيٌ بحكم الطبع والفطرة، أي أنّ اجتماعية الإنسان وأنّه يعيش في ظل الجماعة وأنّ لديه روح الاجتماع تنشأ من الخاصة الذاتية للنوع الإنساني، وعليه فنوعية الإنسان هي التي تحدد مسير روح الجماعة. فأساس الروح الجماعية هي الروح الفردية والفطرة الإنسانية ولأنّ الإنسان نوع واحد، فإنّ المجتمع الإنساني له طبيعة وماهية واحدة البتة، ولهذا يمكن أن يكون لكل الناس دين واحد. ومن هنا نجده يقول: "الإسلام يؤكد أولًا على وحدة ماهية الدين، ويرى أنّ

٢٥ مطهري، المجتمع والتاريخ. الجزء الأول ٢٩.

اختلاف الشرائع السماوية إنّما هو اختلافٌ فرعيٌ لا اختلاف ماهوي. ثم إنّ الإسلام يقدم ثانيًا منهجًا شاملًا تكامليًا لحياة الأفراد والمجتمعات في كل زمان ومكان. من هاتين النقطتين يمكن استنتاج أنّ النظرة الإسلامية للمجتمعات تقوم على أساس وحدة النوع والماهية لجميع المجتمعات البشرية."[٢٦].

فلو كانت ماهية المجتمعات متعددة لتعددت ماهيات الشرائع السماوية تبعًا لذلك. بينما نجد القرآن يؤكد مرارا على أنّ الدين واحد في جميع العصور والمجتمعات، وليس ثمة أديان في المفهوم القرآني. فكافة الأنبياء استهدفوا غاية واحدة وسلكوا طريقا واحدا: ﴿ **شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ**... ﴾ (الشورى ١٣). ومن هنا فالنظرة الإسلامية إلى الأفراد هي نظرة الوحدة في النوع والماهية كما أنّ نظرة الإسلام إلى المجتمعات هي وحدة المجتمعات نوعًا وماهيةً باعتبارها واقعًا عينيًا.

خ. التاريخ:

ينقسم التاريخ إلى ثلاثة أنواع وهي:

١. **التاريخ النقلي**: وهو العلم بالأحداث والوقائع والأوضاع وأحوال البشر الكائنة في زمن سبق زمن سردها. وهو علم جزئي ونقلي وعلم بالكينونات، ويرتبط بالماضي.

٢. **التاريخ العلمي**: وهو العلم بالقواعد والقوانين والسنن المهيمنة على الحياة الماضية. وهذا العلم يتأتى من دراسة وتحليل الأحداث والوقائع الماضية. وتشكل مسائل "التاريخ النقلي" المواد الأولية لهذا العلم. وهو علم يرتبط بالماضي وبالكينونات لكنه كلي وعقلي، وهو قسم من علم الاجتماع.

٣. **فلسفة التاريخ**: وهي العلم بالتحولات والتطورات التي تنقل المجتمع من مرحلة إلى أخرى، والقوانين المتحكمة في هذه التطورات والتحولات. وهو علم بصيرورة المجتمعات لا بكينونتها، كما أنه كلي وعقلي.

٢٦ مطهري، المجتمع والتاريخ. الجزء الاول ٣٩.

د.العلية في التاريخ:

إنّ مبدأ العلية لو كان سائدا في التاريخ للزم عنه بالضرورة وقوع كل حادثة في ظرفها المعين، ولساد نوع من الجبر في التاريخ، ولأصبح العالم مسرحًا عليه دمى تحركها يد من خلف الستار[٢٧].

فإذا كان الجبر سائد في التاريخ، فما هو مصير حرية الأفراد واختيارهم؟ فلو كان وقوع الحوادث التاريخية جبري، لما عادت للفرد أية مسؤولية، ولما عاد أي فرد يستحق التمجيد والثناء، أو الذم واللوم. ومن جهة أخرى لو كان التاريخ خارجا عن إطار العلية، لما كان هناك تعميم. وإذا فقد التاريخ التعميم فقد السننية والقانون أيضا. فالقانون وليد التعميم، والتعميم وليد مبدأ العلية[٢٨].

يرى الأستاذ مطهري أن بعضهم اتجه إلى العلية والتعميم في دراسة التاريخ فأنكر حرية الأفراد واختيارهم. أو قبل شيئا أسماه بالحرية وما هو بالحرية. فهيجل مثلا هو من أصحاب الجبر في التاريخ[٢٩]، وتبعه في ذلك ماركس[٣٠]، والحرية في رأي هذين الاثنين ليست سوى الوعي بالضرورة التاريخية.

فهؤلاء يذهبون إلى أنّ الإنسان لا يوجه التاريخ، أو يغير اتجاهه، وإنما يحافظ على بقائه ومسيرته التكاملية إذا استطاع أن يضع نفسه في اتجاه حركة التاريخ، ومن دون ذلك سيندحر ويتلاشى، ومن هنا يُطرَح هذا السؤال: هل الإنسان حر أو مجبر في السير باتجاه حركة التاريخ؟ وهل يبقى معنى للحرية في إطار مبدأ تقدم المجتمع على الفرد؟.

إنّ الأقوال السابقة تعرف الحرية على أنّها الوعي بالحتمية، لكن هذا البيان لا يحل المشكلة لأنّ إنسانا مثلا لو تعرض لسيل جارف وعلم أنّه سيجرفه حتمًا. فكيف لعلمه ووعيه أنْ يخلصه من ذلك الجبر؟ فمجرد العلم والوعي لا يبرر الحرية في العمل والوقوف في مقابل الحوادث.

---

٢٧ اقبال، محمد. تجديد التفكير الديني في الإسلام، د.ط. (دار آسيا، ١٩٨٥م)، ٦٥.
٢٨ مطهري، المجتمع والتاريخ، الجزء الاول ٦٢.
٢٩ هيجل، فريدريك. محاضرات في فلسفة التاريخ. ترجمة إمام،عبد الفتاح إمام. ط٣ (بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر، ١٩٨٣م)، ٨٦-٨٨.
٣٠ بدوي، عبد الرحمن. موسوعة الفلسفة. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١ (بيروت، ١٩٨٤م)، الجزء الثاني ٤٠٧.

كما أنّ النظرية التي ترى أن الظروف الاقتصادية هي التي تصنع الإنسان وليس أنّ هذا الأخير هو الذي يصنع الظروف، وأنّ الظروف هي التي تحدد مسيرة الإنسان، وأنّ الإنسان لا يحدد مسيرة الظروف، هي نظرية لا تبقي للحرية أي معنى أو مفهوم[٣١].

إنّ السبيل إلى حل هذه المعضلة في رؤية المطهري لا يتأتى إلا من خلال نظرية الفطرة، فالحرية الإنسانية لا يمكن تصورها - حسبه - إلا في نطاق نظرية الفطرة، التي تذهب إلى أن الإنسان يولد ضمن الحركة الجوهرية العامة للكون مع بعدٍ خاصٍ، وهذا البعد يشكل أساس شخصيته الأولى، ثم ينمو ويتكامل تحت تأثير عوامل البيئة. وهذا البعد الوجودي هو الذي يمنح الإنسان شخصيةً إنسانيةً تؤهله لأن يمتطي التاريخ ويتحكم فيه ويعين مسيرته.

لقد عولجت هذه المسألة في مبحث المجتمع تحت عنوان: جبر واختيار الفرد في قبال المجتمع وستوضح أكثر في فصل أبعاد التاريخ، حين التطرق إلى دور البطل في مسيرة التاريخ.

إنّ حرية الإنسان بالمفهوم الذي تمت الإشارة إليه، لا يتنافى مع قانون العلية، ولا مع قانونية التاريخ وشمولية المسائل التاريخية. فمسألة انتهاج الإنسان الحر المريد طريقا معينا مشخصا في حياته الاجتماعية انطلاقا من تفكره وإرادته، هي غير مسألة خضوع الإنسان لحتمية عمياء تتحكم فيه وفي إرادته[٣٢].

ويجيب الأستاذ مطهري على القائلين بأن بعض الحوادث الجزئية التي تأتي صدفة واتفاقا تغير حركة التاريخ، وأن هذه الحوادث ليس لها قاعدة معينة تخضع لها[٣٣]. وإذا كانت هذه الحوادث على هذا المنوال تغير حركة التاريخ، فلا يوجد هناك إذا قانون أو سنة تحكم حركة التاريخ، بقوله: **"معالجة مسألة دور الصدفة في مجرى أحداث التاريخ ترتبط بموقفنا من المجتمع والتاريخ، هل المجتمع والتاريخ ذوا شخصية مستقلة وذوا مسيرة مشخصة أم لا؟ لو كان التاريخ كذلك، لأضحى دور الأحداث الجزئية طفيفا يكاد لا يذكر، أي أن الحوادث الجزئية، مع قدرتها على تغيير بعض فقرات سلسلة الأحداث، لا تغير المسيرة العامة للتاريخ. أما إذا كان التاريخ يفتقد الشخصية والطريق المحدد الذي تعينه له تلك الشخصية والطبيعة،**

٣١ لوبون ،غوستاف. فلسفة التاريخ. ترجمة زعيتر، عادل (مصر: دار المعارف، ١٩٥٤م)، ١٩١.
٣٢ مطهري، المجتمع والتاريخ، الجزء الاول ٦٤_٦٥.
٣٣ صائب عبد الحميد، فلسفة التاريخ في الفكر الاسلامي: دراسة مقارنة، د.ط. (بيروت: دار الهادي، د.ت) ١١٥.

لما عاد للتاريخ طبعا مسيرة ولم تعد أحداثه قابلة للتوقع أو الانضواء تحت قاعدة عامة... ونحن نعتقد أن دور الصدفة لا أثر له في الاتجاه العام لمسيرة التاريخ وفي ضروراته وحتمياته[٣٤]"

ذ.طبيعة التاريخ:

تعد معرفة الطبيعة الأصلية للتاريخ من أهم المسائل التي تطرح في مجال التاريخ، إذْ يدور البحث عن الطبيعة الأصلية للتاريخ وهل هي ثقافية أم سياسية أم اقتصادية؟ وهل أنها مادية أم معنوية؟ وغير ذلك. والإجابة على هذه التساؤلات تمكننا من فهم صحيح للتاريخ.

إنّ المادية التاريخية هي أحد النظريات التي كانت مطروحة في هذا الصدد إذْ ذهبت إلى أنّ التاريخ ذو ماهية مادية ووجود ديالكيتكي، فبالنسبة لماهية التاريخ يعتقد أصحاب هذه النظرية أنّ التاريخ والإنسان ذوا طبيعة مادية اقتصادية لأنّ النظام الاقتصادي للمجتمع هو أساس كل الحركات والنهضات والمظاهر التاريخية في المجتمع، أي أنّ وسائل الإنتاج والعلاقات الإنتاجية هي التي تفرز المظاهر المعنوية للمجتمع بما فيها الأخلاق والعلم والفلسفة والدين والقانون والثقافة، وهي التي توجهها، ومع تغير الوسائل والعلاقات الإنتاجية تتغير المظاهر المعنوية أيضًا. وأما الجذور الفكرية والبنى المعرفية التحتية لهذه النظرية فهي قائمة على أصل تقدم المادة على الروح وأصل تقدم الحاجات المادية على المعنوية وأصل تقدم العمل على الفكر، وأصل تقدم الوجود الاجتماعي على الفردي[٣٥].

وأما بالنسبة للوجود الديالكتيكي للتاريخ، فإن حركات التاريخ التكاملية هي حركات ديالكتيكية، ناتجة عن الصراع بين النقائض الديالكتيكية المؤتلفة ائتلافا خاصا. والتناقض الديالكتيكي يعني أن كل ظاهرة في الوجود تربي في أحشائها ضدها ونقيضها، وبعد مجموعة من التغيرات الناتجة عن التضاد الداخلي، تنتقل تلك الظاهرة بفعل تغيير شديد كيفي إلى مرحلة أخرى.

وقد وجه الأستاذ إلى هذه النظرية مجموعة من الانتقادات من بينها:

أولا: أنها تفتقد إلى الدليل: فكل نظرية فلسفية تاريخية بحاجة إلى دليل قائم إما على التجارب العينية الواقعة الموجودة في زمن صاحب النظرية أو زمن سابق له، وإما على الأسس

٣٤ مطهري، المجتمع والتاريخ، الجزء الأول ٦٧.
٣٥ ستالين، المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية (دمشق: دار دمشق، د.ت) ٥٤_٥٥.

المنطقية والفلسفية الثابتة. ونظرية المادية التاريخية لا تستند إلى أيّ واحد من هذه الأدلة[٣٦].

ثانيا: التناقض في النظرية: فمن جهة نجد أن الاقتصاد "البناء التحتي" هو الأساس والقاعدة لكافة المؤسسات الاجتماعية "البناء الفوقي"، ومن جهة أخرى طبق المبدأ الديالكتيكي نجد أنّ المؤسسات الاجتماعية "البناء الفوقي"تؤثر في الاقتصاد "البناء التحتي" وهي الأساس له، فلا معنى للنظرية مادام أن كل واحد منهما هو شرط وجود الآخر. ف"أ" هي علة "ب" ومؤثرة فيه وطبق المنطق الديالكتيكي، فإن "ب" علة "أ" ومؤثرة فيه[٣٧].

هذا ويعتقد الأستاذ مطهري فيما يرتبط بالنظرة الإسلامية إلى طبيعة التاريخ أنّ عوامل الخلقة قد أودعت في ذات الإنسان أساس شخصية البشر المتمثلة بأفكاره ونزعاته السامية. فصحيح أنّ الإنسان لم يأت إلى الدنيا وهو ذو شخصية متكاملة جاهزة، لكن الأسس الرئيسة لشخصيته يكتسبها من الخلقة لا من المجتمع. وبالتعبير الفلسفي، إنّ التكوين الأساس للأبعاد الإنسانية في الموجود البشري - بما في ذلك الأبعاد الأخلاقية والدينية والفلسفية والفنية والعاطفية والصورة النوعية للإنسان ومبدأ فصله ونفسه الناطقة- يتم بيد عوامل الطبيعة.

والمجتمع يلعب دوره في تربية القابليات الذاتية أو مسخها. والنفس الناطقة موجودة في الإنسان بالقوة، ثم تخرج إلى مرحلة الفعل بالتدريج.

ومن هنا، فالإنسان من حيث مبادئ تفكيره الأولية، ومن حيث نزعاته المعنوية والمادية مثل سائر الموجودات الحية يمتلك كل تلك المبادئ والأسس بالقوة ثم تتفتح هذه وتنمو على أثر سلسلة من الحركات الجوهرية.

إنّ الإنسان حسب المطهري ينمي شخصيته الفطرية بتأثير العوامل الخارجية، ويبلغ بها إلى درجة الكمال أو ينحرف بها أو يمسخها أحيانا. وهذا المبدأ هو الذي عرف في العلوم الإسلامية باسم مبدأ الفطرة. ويعتبر الأصل الأم في الفكر الإسلامي. وبناءا على هذا المبدأ، فإنّ الجوانب النفسية للإنسان مقدمة على جوانبه الاجتماعية لأنّ الجوانب الإجتماعية تنطلق من جوانبه النفسية.

٣٦ مطهري، المجتمع والتاريخ، الجزء الأول ١٠٨.
٣٧ مطهري، الجزء الأول ١٠٩.

وبناءا على هذا المبدأ أيضًا، فإنّ الإنسان يولد وهو لا يملك بالفعل إدراكا ولا تصورا ولا تصديقا ولا نزاعات إنسانية، لكنه يولد وهو يحمل أبعادا وجودية فضلا عن الأبعاد الحيوانية، وهذه الأبعاد الوجودية هي التي تفرز بالتدريج سلسلة تصورات وتصديقية انتزاعية" تسمى بالتعبير الفلسفي والمنطقي: المعقولات الثانوية"، وهذه بدورها تشكل أساس التفكير الإنساني، وبدونها يستحيل أي لون من ألوان التفكير المنطقي، كما أنها تخلق في الإنسان سلسلة نزعات متسامية، وهذه الأبعاد هي القاعدة الأساسية للشخصية الإنسانية في الكائن البشري[٣٨].

ر.نظريات في فلسفة التاريخ:

إن دراسة تحول وتطور التاريخ الإنساني هو أحد البحوث الشيقة والمهمة في فلسفة التاريخ، وذلك نتيجة طبيعة الإشكاليات المطروحة فيها، ومن ذلك: هل أن حركة التاريخ تسير باستمرار نحو التقدم والتكامل أم أنها حركة دورية وفي حلقة واحدة؟ ما هو محرك هذا التكامل والتطور؟ هل أنّ التاريخ يتجه نحو المادية أم المعنوية؟ ونحو الحكومة الإلهية أم غير الإلهية؟ كيف ستكون نهاية التاريخ؟

وعليه ستعالج المقالة فيما يأتي أراء الأستاذ مطهري حول هذه التساؤلات.

فأولًا: إنّ أساس تطور وتكامل التاريخ هو أمر مسلم به، وهذا الأمر لا يتنافى مع انحطاط الحضارات المختلفة في مراحل خاصة من التاريخ، وبذلك فإنّ السير الكلي للتاريخ هو في اتجاه التكامل والتطور، وليس في حركة دورية تعاقبية.

ثانيا: إن النظريات المطروحة حول محركات التاريخ في رؤية المطهري هي:

أ.نظرية الأقوام أو العنصرية: تذهب هذه النظرية إلى أن بعض السلالات والأعراق لها قابلية صنع الحضارات والثقافات، وبعضها ينتج العلوم والفلسفة والصناعات والفنون والأخلاق، وبعضها الآخر مستهلك ليس إلا[٣٩].

نقدها: وقد رأى الأستاذ أنّ هذه النظرية في أصلها باطلة، وعلى فرض قبولها فإنها لا

٣٨ مطهري، المجتمع والتاريخ. الجزء الأول ٧٩.
٣٩ لوبون، فلسفة التاريخ، ١٢٣.

تجيبنا على تساؤلنا وهو لماذا تتحول حياة الإنسان الاجتماعية بينما حياة الحيوان الاجتماعية ليست كذلك؟ فأين يكمن سر ذلك؟[٤٠]

ب.النظرية الجغرافية: البيئة الطبيعية ـ بموجب هذه النظرية ـ هي صانعة الحضارات والمدنيات والصناعات. في المناطق المعتدلة ينشأ المزاج المعتدل والأدمغة المقتدرة. واختلاف الأجناس البشرية يعود إلى اختلاف البيئة الطبيعية ومع تنقل السلالات البشرية في البيئات الجغرافية المختلفة تنتقل الكفاءات أيضا بين الأجناس البشرية بالتدريج. ومنتسكيو عالم الاجتماع الفرنسي من أتباع هذه النظرية[٤١].

نقدها: ما يزال السؤال الأساس باقيا. لماذا لم تطو الحيوانات الاجتماعية كالنحل والنمل حركة تاريخية في تلك الأقاليم التي يتحرك فيها التاريخ؟ ما هو العامل الذي أدى إلى بقاء النحل ثابتا في حياته، بينما دفع بالإنسان إلى أن يطوي مراحله التاريخية[٤٢].

ت.نظرية الأبطال: هذه النظرية تؤمن بأن النوابغ هم الذين يصنعون التاريخ، ويخلقون التغييرات والتطورات التاريخية سواء العلمية أو السياسية أو الاقتصادية أو الفنية أو الأخلاقية. وهؤلاء النوابغ هم الأفراد الإستثنائيون في كل مجتمع، إذْ يتمتعون بقدرة عقلية أو ذوقية أو إبداعية أو إرادية عالية وخارقة، ويدفعون مجتمعاتهم نحو التطور والتقدم العلمي أو الفني أو السياسي، أو الأخلاقي. وعليه فإنه المحركون لعجلة التاريخ. ألكسيس كارل تبنى هذه النظرية في كتابه المعروف بالأبطال[٤٣].

نقدها: صحيح أن للنوابغ والمصلحين وخاصة الأنبياء دور لا يمكن إنكاره ولكن كافة أفراد المجتمع لهم دور في حركة التاريخ أيضا. فما لم يرد أو يأبه كافة المجتمع أو أغلب أفراده عملا، ولم يفعلوا استعداداتهم وحس الابتكار والاختراع، فإن المجتمع لن يتحرك خطوة[٤٤].

﴿ إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (الرعد ١١)

٤٠ مطهري، المجتمع والتاريخ، الجزء الثاني ٤٩.
٤١ صديقي، فلسفة التاريخ، ٨٨.
٤٢ مطهري، المجتمع والتاريخ، الجزء الثاني ٥٠.
٤٣ أحمد محمود صبحي، في فلسفة التاريخ (مصر: مؤسسة الثقافة الجامعية، ١٩٧٥م)، ٥٨_٦٠.
٤٤ مرتضى مطهري، مقدمة في الرؤية الكونية، د.ت ٤٨١.

ث.النظرية الاقتصادية: إنّ الاقتصاد هو العامل المحرك للتاريخ، فتطور اقتصاد المجتمع "البناء التحتي"هو الذي يغيره جذريا "البناء الفوقي"، فالحاجات الاقتصادية والفنية والأخلاقية والسياسية والاجتماعية "البناء الفوقي" هي التي تخلق الابتكار والإبداع، إذ الحاجة تولد الاختراع، وهذه الحاجة هي وليدة التغيير في وسائل الإنتاج "البناء التحتي". ومن ثم فهي الأساس في تحريك عجلة التاريخ نحو التقدم والتطور والازدهار في كافة الميادين[٤٥]. ويعد ماركس والماركسيون كانوا من أتباع هذه النظرية.

نقدها: يوجه الاستاذ إلى هذه النظرية هذا الإستفهام وهو: ما هو العامل الذي يؤدي إلى تغيير القاعدة والبناء التحتي لتتغير تبعا لذلك كل الأبنية الفوقية؟ فحين يكون الاقتصاد بناءا تحتيا لا يكفي لأن يكون متحركا ومحركا[٤٦].

ج.النظرية الإلهية: هذه النظرية ترجع كل ما يظهر على سطح الأرض إلى الأوامر الإلهية المسيرة للأرض وفق حكمة بالغة. وتطورات التاريخ مظهر للمشيئة الإلهية وحكمة بالغة. فإرادة الله هي التي تغير التاريخ. والتاريخ مسرح لتحقيق الإرادة الإلهية المقدسة. وقد آمن بهذه النظرية التي تعرف بنظرية العناية الالهية جملة من المفكرين من بينهم أوغسطين وفيكو وروسو وغيرهم[٤٧].

نقدها: وقد وجه الأستاذ مطهري إلى هذا النظرية الملاحظة التالية وهي أنه: ليس التاريخ وحده مظهر المشيئة الإلهية، بل مسيرة العالم كلها بأسبابها وعللها ودوافعها وموانعها مظهر للمشيئة الإلهية. والحديث ينبغي أن يدور حول النظام الذي اقتضت المشيئة الإلهية أن تخلق الإنسان وفقه، والسر الذي أودعته المشيئة في هذا الموجود فصيرت منه كائنا متطورا متغيرا، بينما تفتقد سائر الأحياء هذا السر[٤٨].

النظرية الفطرية:يعتقد الأستاذ مطهري بصحة هذه النظرية إذْ يذهب إلى أنّ الإنسان يتمتع بصفات تجعل خصائص حياته الاجتماعية متكاملة، وإحدى تلك الصفات قدرته على استيعاب التجارب وحفظها. فما يحصل عليه الإنسان من تجاربه، يحفظه ويستثمره في

٤٥ ستالين، المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ٧٥.
٤٦ مطهري، المجتمع والتاريخ، الجزء الثاني ٥٠.
٤٧ عبد الحميد، فلسفة التاريخ في الفكر الاسلامي: دراسة مقارنة٨٣.
٤٨ مطهري، المجتمع والتاريخ، الجزء الثاني ٥٠.

التجارب التالية. وإحدى الصفات الأخرى قدرته على التعلم عن طريق البيان والقلم، فهو يكتسب تجارب الآخرين عن طريق اللُّغة مشافهةً، ويكتسبها في مرحلةٍ أعلى كتبيًا. وعن هذين الطريقين تنتقل التجارب الإنسانية من جيلٍ إلى جيلٍ. ومن هنا ركز القرآن الكريم على نعمة البيان والقلم إذ قال: ﴿ **الرَّحْمَنُ(١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ(٢)خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤)**"، الرحمن ١- ٤. وقال أيضًا: " **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ(١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ(٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ(٤)الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٥)** ﴾ (العلق ١-٥).

والصفة الثالثة، هي تزود الإنسان بقوة العقل والابتكار التي هي مظهرٌ للإبداع الإلهي.

والصفة الرابعة، هي ميل الإنسان الذاتي ورغبته الفطرية في الإبداع. أي أنّ الإنسان لا ينطوي على قدرة الإبداع فحسب بل فيه اندفاع ذاتي نحو الإبداع والخلاقية.

هذه الصفات هي التي تدفع الإنسان نحو التقدم. بينما تفتقد الحيوانات قوة حفظ التجارب ونقل المكتسبات وقوة الابتكار والإبداع والميل الذاتي نحو الإبداع. من هنا كانت حياة الحيوان ساكنة وحياة الإنسان متطورة باستمرار[٤٩].

ثالثا: وأما عن وجهة التاريخ وهل أنّه يتحرك باتجاه المادية أو المعنوية؟ فالأستاذ مطهري انطلاقًا من مبدأ أصالة المجتمع وأصالة الفرد ومبدأ هيمنة السنن الإلهية على المجتمعات البشرية وأنّ كافة البشرية تلعب دورًا في هذه المسيرة التكاملية، يرى أنّ التاريخ يتكامل نحو البعد المعنوي والإلهي والإنساني، والفطرة الإلهية المغروسة في الإنسان هي مبدأ وأسس هذه الجهة. وبعبارة أخرى فإنّ الطريقة الإنسانية أو الفطرية لتفسير التاريخ -كما في رؤية المطهري - تقف في النقطة المقابلة للتفسير الآلي. فهذه الطريقة تمنح الإنسان والقيم الإنسانية أصالةً سواء على مستوى الفرد أم على مستوى المجتمع.

يقول المطهري: "**مسيرة التاريخ** - انطلاقا من هذه النظرة - **متحولة متكاملة كالطبيعة ذاتها، والحركة باتجاه الكمال ضرورة لا تنفصل عن ذات أجزاء الطبيعة بما فيها التاريخ.**

تحول التاريخ وتكامله لا يقتصر على الجانب الفني والآلي.. أي يقتصر على الجانب المدني،

٤٩ مطهري، المجتمع والتاريخ. الجزء الثاني ٥٢.

بل أنه يعم ويشمل جميع الشؤون المعنوية والثقافية للإنسان، ويتجه نحو تحرير الإنسان من القيود البيئية والاجتماعية[٥٠]."

وبناء على هذا فإنّ الإنسان بفعل تكامله الشامل يتحرر تدريجيًا من ارتباطه ببيئته الطبيعية والاجتماعية ويتجه نحو توثيق ارتباطه بالعقيدة والإيمان والايديولوجية، وسيصل في المستقبل إلى الحرية المعنوية التامة المتمثلة في الارتباط التام بالعقيدة والإيمان والمدرسة الفكرية.

فالصراع الداخلي الذي تدور رحى معاركه داخل الانسان سيؤول في نهاية المطاف إلى صراع خارجي بين المجتمعات، بين مجتمع عقدي ومرتق روحيا ومجتمع سافل ومنحط نفسيًا. **"هذا الصراع الداخلي في نفس الإنسان الذي أطلق عليه القدماء اسم النزاع بين العقل والنفس. سينجر إلى صراع بني المجموعات البشرية، ويتخذ صورة حرب بين الإنسان المتكامل المتحرر روحياً، والإنسان المنحط المغلول بقيود حيوانية[٥١]**.

إنّ معارك التاريخ اتخذت أشكالًا وماهيات مختلفةٍ وانطلقت من عللٍ وأسبابٍ متباينةٍ، لكن المعارك التقدمية التي دفعت بعجلة التاريخ والإنسانية على سلم الارتقاء هي المعارك التي دارت رحاها بين الإنسان العقائدي الملتزم المؤمن المتسامي والإنسان العابث المنحط المغلول بقيود شهواته الحيوانية والبعيد عن خط الالتزام والهدف والتعقل.

فالمعارك التقدمية التكاملية لا تتصف بالذات بصفة طبقية وليست بالمجابهة بين القديم والجديد بالمفهوم الذي ينص عليه الاتجاه الآلي. وإنما المعارك البشرية تتجه على مر التاريخ بالتدرج نحو اتخاذ صفة أيديولوجية، ويتجه الإنسان بالتدرج نحو التكامل في قيمة الإنسانية، أي يقترب من الإنسان المثالي ومن المجتمع المثالي.

كما أن المسيرة التاريخية في خطها الكلي العام تتجه نحو التكامل إلا أن هذا الخط المتصاعد لا يسير سيرا تكامليا جبريا في جميع نقاطه. فليس من الضروري حتما أنْ يكون المجتمع في مرحلة معينة من تاريخه أكثر تكاملا من مرحلته التاريخية السابقة، لأن العامل الأساسي في حركة التاريخ هو الإنسان، والإنسان موجود مختار وذو إرادة حرة.

٥٠ مطهري، نهضة المهدي في ضوء فلسفة التاريخ، ٦٣.
٥١ مطهري، ٦٣.

إنّ منحنى المسيرة البشرية يتأرجح بين الهبوط والارتفاع، وبين السرعة والبطء والسكون أحيانا. وتاريخ الحضارات البشرية ليس سوى سلسلة من حالات والازدهار والهبوط والسقوط والانقراض. لكن من جهة أخرى فإن الإنسان كما يرى المطهري: **"موجوداً متمتعاً بخصال الهية ومزوداً بفطرة تدفعه لأن يطلب الحق وينشده، وقادرا على التحكم بنفسه وعلى التحرر من جبر الطبيعة والبيئة والغرائز والمصير المحتوم.**

والقيم الإنسانية بموجب هذه النظرة لها أصالتها في الإنسان، أي أن ثمة نزعات قد أودعت في طبيعة الإنسان، والموجود البشري بموجب طبيعته الإنسانية ينشد القيم الإنسانية السامية، وبعبارة أخرى ينشد الحق والحقيقة والعدالة ومكارم الأخلاق، ويستطيع بموجب قواه العقلية أن يخطط لبناء مجتمعه وأن لا يستسلم استسلاماً أعمى لظروف البيئة، وأن ينفذ مشاريعه الفكرية انطلاقا من إرادته وقدرته على الانتخاب. دور الوحي هو الموجه والمساعد للإنسان، باعتبار أن الوحي هادي البشرية وحامي القيم الإنسانية[٥٢]**."**

ز. صراع الحضارات ومستقبل البشرية:

قد يعتقد البعض أن الشر والفساد والتعاسة صفات لا تفارق الحياة البشرية، وقد يرى بعض آخر أنّ البشرية تحفر قبرها بيدها بفعل تطورها التكنولوجي والتقني وتقدمها في صنع وسائل التخريب والدمار، وهي على شفا السقوط والانهيار. بين هؤلاء وهؤلاء يعتقد الأستاذ مطهري أن البشرية تتجه نحو مستقبل مشرق سعيد تنقلع فيه جذور الظلم والفساد[٥٣].

ويتبلور ذلك في مسألة المهدي ﷺ، إذْ إِنَّها تكتنف جميع الأبعاد الحضارية وتقوم على أسس قوية، يقول المطهري: **"مسألة نهضة "المهدي"ﷺ قضية اجتماعية فلسفية كبرى. هذه المسألة لها أركانها وعناصرها المختلفة، بعض هذه الأركان والعناصر فلسفي عالمي يشكل جزءاً من التصور الإسلامي، وبعضها ثقافي تربوي، وبعضها سياسي وبعضها اقتصادي، وبعضها اجتماعي وبعضها إنساني أو إنساني - طبيعي"**[٥٤].

٥٢ مطهري، نهضة المهدي في ضوء فلسفة التاريخ. ٦٣.
٥٣ مطهري، ٨٢.
٥٤ مطهري، ٨١.

هـذا ويؤمـن الأسـتاذ مطهـري انطلاقًـا مـن القـرآن الكريـم بـأنّ الـصراع بـين الحضـارات هـو نتيجـة لا منـاص منهـا بـين قـوى الحـق وقـوى الباطـل فقـد كان في المـاضي وسـيبقى مسـتمرا، وعـلى المسـلم التـزود لهـذا الـصراع بمجموعـة مـن العوامـل الاجتماعيـة والاقتصاديـة والأخلاقيـة حتـى تكـون نتيجـة الـصراع حليفتـه. وذلـك لأنّ هـذه العوامـل لهـا دور بـارز في مسـيرة التاريـخ وتحريـك عجلتـه. فالتاريـخ لـه قوانينـه وموازينـه وقواعـده، ولإرادة الإنسـان دور في تعيـين مسـير حركـة التاريـخ كـما أنّ للقيـم الأخلاقيـة والإنسـانية دور بـارز في ذلـك. وعـلى هـذا الأسـاس يقـول المطهـري: **"القـرآن يـسرد وقائـع التاريـخ البـشري منـذ بدايـة الخليفـة عـلى أنهـا صراع مسـتمر بـين قـوى الحـق وقـوى الباطـل، بـين مجموعـة مـن أمثـال إبراهيـم وموسـى وعيسـى ومحمـد ﷺ واتباعهـم المؤمنـين، ومجموعـة أخـرى مـن أمثـال نمـرود وفرعـون وجبابـرة اليهـود وأبي سـفيان وأمثالهـم.**

فلكل فرعون موسى...وفي خضم هذا الصراع المستمر ينتصر الحق حينا والباطل حينا آخر.

وانتصـار أحـد الفريقـين أو فشـله يرتبـط طبعـا بمجموعـة مـن العوامـل الاجتماعيـة والاقتصاديـة والأخلاقيـة.... حينـما نؤمـن بضوابـط التاريـخ وموازينـه وقواعـده، وبـدور إرادة الإنسـان في تعيـين مسـير حركـة التاريـخ وبالـدور الأصيـل والحاسـم للقيـم الأخلاقيـة والإنسـانية، يصبـح التاريـخ حينئـذ ذا عطـاء تعليمـي مفيـد، والقـرآن الكريـم ينظـر إلى التاريـخ مـن هـذه النافـذة....ويؤكـد في الوقـت ذاتـه عـلى أن الـصراع المسـتمر بـين الفريقـين منـذ فجـر التاريـخ ذو هويـة معنويـة إنسـانية لا ماديـة طبقيـة.[٥٥]".

وأمـا مسـتقبل ونهايـة الـصراع فهـي وعـد إلهـي بتحقـق النـصر للحـق والعدالـة والقيـم الإنسـانية التـي تنسـجم مـع فطـرة الإنسـان وهويتـه، ومـن ثـمَّ يتحقـق المجتمـع المثـالي الـذي كانـت تتـوق إليـه كل نفـس حـرة وأبيـة مـن آدم حتـى الخاتـم وإلى يومنـا هـذا

إنّ تحقـق الوعـد الإلهـي بانتصـار الحـق وأتباعـه عـلى الباطـل وأعوانـه هـو ممـا تجمـع عليـه الفـرق والمذاهـب الإسـلامية – مـع اختـلاف طفيـف بينهـا – إذْ إنَّهـا تؤمـن بحتميـة انتصـار قـوى الحـق والعدالـة والسـلام في صراعهـا مـع قـوى الباطـل والظلـم والعـدوان في نهايـة المطـاف.

٥٥ مطهري، نهضة المهدي في ضوء فلسفة التاريخ. ٧٨_٨٠.

وبما أنّ هذه المسألة يطرحها النص الديني، فإنها ستكون محققة الوقوع وإنْ طال الزمان. فهذه الفكرة تنطلق أساسًا من المفاهيم القرآنية التي تؤكد على حتمية انتصار رسالة السماء كما في قوله تبارك وتعالى: **"هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون"** التوبة ٣٣ وحتمية انتصار الصالحين كما في قوله عز وجل **"ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون"** (الأنبياء ١٠٥)، وحتمية انهزام قوى الظلم والطغيان نظير قوله سبحانه ﴿ **وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ، وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ** ﴾ (الآيات ٥-٦) وحتمية بزوغ فجر غد مشرق سعيد على البشرية في قوله ﴿ **قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ **(الأعراف ١٢٨)**.[٥٦]

وكخلاصة لما مر يمكن القول أن فلسفة التاريخ المطهرية تتمثل فيما يلي:

١. المجتمع مجموعة من الأفراد البشرية المرتبطين فيما بينهم بأنظمة وسنن وآداب وقوانين خاصة، ولديهم مصير مشترك.

٢. الإنسان كائن اجتماعي بالطبع، يعني أنّ البعد الاجتماعي مغروس في متن خلقته وطينته.

٣. المجتمع مركب حقيقي وأصيل مع الحفاظ على أصالة الفرد، وهو مزيج الثقافات أي تركيب من العواطف والرغبات والإرادات، لكن ليس أن تركيب الأفراد ينتج الإنسان الكل باعتباره واقعا وحقيقة.

٤. بما أن للمجتمع وجود حقيقي وواقعي فله سنن وقوانين خاصة به.

٥. الأفراد ليسو مجبورين في قبال المجتمع كما أن أصالة المجتمع لا تنافي أصالة الفرد، ولهذا فالمجتمع يؤثر في الفرد غير أنه لا يسلبه الاختيار.

٦. بما أن الإنسان نوع واحد، فالمجتمعات البشرية نوع واحد أيضا، وذلك نتيجة الفطرة. ولذلك يمكن أن يكون للمجتمعات كافة دين واحد.

٥٦ مطهري، نهضة المهدي في ضوء فلسفة التاريخ. ٣٣.

٧. يتحرك التاريخ تحت ظل قوانين العلية، ولكن هذه العلية التاريخية لا تتنافى مع حرية الإنسان، والفطرة الإلهية للإنسان مع الحركة الجوهرية هي الأساس الأول لشخصية الإنسان، وتكتمل بفعل عوامل المحيط.

٨. إن طبيعة التاريخ معنوية، لأنّ أساس شخصية الإنسان في البعد النظري والميول مبني على فطرته الإلهية ولهذا فطبيعة التاريخ معنوية.

٩. إن حركة التاريخ تتجه باستمرار نحو التكامل والتطور، أما بعض موارد الانحطاط لبعض الحضارات التي تقع في مراحل معينة فإنها لا تخدش في الحركة الكلية نحو التكامل.

١٠. محرك هذا التكامل والتطور، هو الخصائص الإنسانية المتمثلة في قابلية التعاطي المعرفي بالقلم والبيان، وحفظ التجارب، والقوة العقلية والفكرية والإبداعية، والنزعة الذاتية والعلاقة الفطرية للإبداع.

١١. إن مستقبل البشرية والتاريخ يبعث على التفاؤل والمعنوية وحكومة الإسلام وكل ذلك يستند إلى الفطرة.

المصادر.

القرآن الكريم.

اقبال، محمد. تجديد التفكير الديني في الإسلام. د.ط. دار آسيا، ١٩٨٥م.

السبحاني، جعفر. الفكر الخالد في بيان العقائد. ط١. قم: مؤسسة الامام الصادق ﷺ، ١٤٢٥هـ.

الشريف الرضي، ابو الحسن السيد محمد بن الحسين. نهج البلاغة. الصالح، صبحي.ط ٥. قم، ايران: مؤسسة دار الهجرة، د.ت.

الصدر، محمّد باقر. المدرسة القرآنية. بيروت: دار التعارف، ١٤٠٠هـ.

الطباطبائي، محمد حسين. الميزان في تفسير القرآن. بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٣٩٤هـ.

الفارابي، أبو نصر محمد. آراء أهل المدينة الفاضلة. تحقيق نادر، ألبير نصري. د.ط. بيروت: دار المشرق، ١٩٩١م.

اليزدي، محمد تقي مصباح. المجتمع والتاريخ في رؤية القرآن. ط٣. طهران: مؤسسة الطبع والنشر الدولية، ٢٠٠٠م.

بدوي، عبد الرحمن. موسوعة الفلسفة. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. ط١. بيروت، ١٩٨٤م.

خليل، عماد الدين. التفسير الإسلامي للتأريخ. ط٤. بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٩٨م.

ستالين. المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية. دمشق: دار دمشق، د.ت.

صبحي، أحمد محمود. في فلسفة التاريخ. مصر: مؤسسة الثقافة الجامعية، ١٩٧٥م.

صديقي، عبد الحميد. فلسفة التاريخ. ترجمة الجوادي، كاظم. ط٢. الكويت، ١٩٨٠م.

عبد الحميد، صائب. فلسفة التاريخ في الفكر الاسلامي: دراسة مقارنة. د.ط. بيروت: دار الهادي، د.ت.

كريب، إيان. النظرية الاجتماعية. ترجمة غلوم، محمد حسين. الكويت: عالم المعرفة، ١٩٩٩م.

كسار، جواد علي. التوحيد: بحوث تحليلية في مراتبه ومعطياته تقريراً لدروس السيد كمال الحيدري. ط٦. الامارات: دار فرقد، ٢٠٠٧م.

لوبون، غوستاف. فلسفة التاريخ. ترجمة زعيتر، عادل. مصر: دار المعارف، ١٩٥٤م.

مالك بن نبي. شروط النهضة. د.ط. دمشق: دار الفكر، د.ت.

مطهري، مرتضى. المجتمع والتاريخ. ترجمة شب، محمد علي أذر. طهران: مؤسسة البعثة، ١٤٠٣هـ.

———. مقدمة في الرؤية الكونية، د.ت.

———. نهضة المهدي في ضوء فلسفة التاريخ. ط٢. بيروت: دار التيار الجديد، ٢٠٠٦م.

هيجل، فريدريك. محاضرات في فلسفة التاريخ. ترجمة إمام، عبد الفتاح إمام. ط٣. بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر، ١٩٨٣م.

References.

Holy Quran

Abdul Hamid, Sa'ib. Falsafat al-Tarikh fi al-Fikr al-Islami: Dirasa Muqarana. n.d. ed. Beirut: Dar al-Hadi, n.d.

Al-Farabi, Abu Nasr Muhammad. Ara' Ahl al-Madina al-Fadila. Ed. Nader, Albert Nusayri. n.d. ed. Beirut: Dar al-Mashriq, 1991.

Al-Sobhani, Ja'far. Al-Fikr al-Khalid fi Bayan al-'Aqaa'id. Ed. 1. Qom: Mu'assasat al-Imam al-Sadiq (AS), 1425 AH.

Al-Sharif al-Radi, Abu al-Hasan al-Sayyid Muhammad ibn al-Husayn. Nahj al-Balagha. Ed. Al-Salih, Subhi. Ed. 5. Qom: Mu'assasat Dar al-Hijra, n.d.

Al-Sadr, Muhammad Baqir. Al-Madrasa al-Qur'aniyya. Beirut: Dar al-Ta'aruf, 1400 AH.

Al-Tabataba'i, Muhammad Husayn. Al-Mizan fi Tafsir al-Qur'an. Beirut: Mu'assasat al-A'lami lil-Matbu'at, 1394 AH.

Al-Yazdi, Muhammad Taqi Misbah. Al-Mujtama' wa-al-Tarikh fi Ru'yat al-Qur'an. Ed. 3. Tehran: Mu'assasat al-Tiba'a wa-al-Nashr al-Dawliyya, 2000.

Badawi, Abdurrahman. Mawsou'at al-Falsafa. Al-Mu'assasa al-'Arabiyya lil-Dirasat wa-al-Nashr. Ed. 1. Beirut, 1984.

Cripps, Ian. Al-Nazariyah al-Ijtima'iyah. Trans. Ghalum, Muhammad Husayn. Kuwait: Alam al-Ma'rifa, 1999.

Khalil, Imad al-Deen. Al-Tafsir al-Islami lil-Tarikh. Ed. 4. Beirut: Dar al-'Ilm lil-Malayeen, 1998.

Hegel, Friedrich. Muhadarat fi Falsafat al-Tarikh. Trans. Imam, Abdel Fattah Imam. Ed. 3. Beirut: Dar al-Tanwir lil-Tiba'a wa-al-Nashr, 1983.

Iqbal, Muhammad. Tajdid al-Tafkir al-Dini fi al-Islam. n.d. ed. Dar Asia, 1985.

Kassar, Jawad Ali. Al-Tawhid: Buhuwth Tahliliyya fi Maratibih wa Mu'tayatih Taqrir lil-Durus al-Sayyid Kamal al-Haydari. Ed. 6. UAE: Dar Farqad, 2007.

Le Bon, Gustave. Falsafat al-Tarikh. Trans. Zu'aytir, Adel. Egypt: Dar al-Ma'arif, 1954.

Malik bin Nabi. Shuruut al-Nahdah. n.d. ed. Damascus: Dar al-Fikr, n.d.

Mutahhari, Murtaza. Al-Mujtama' wa-al-Tarikh. Trans. Shab, Muhammad Ali Adhar. Tehran: Mu’assasat al-Ba'tha, 1403 AH.

Mutahhari, Murtaza. Muqaddimah fi al-Ru'yah al-Kawniyyah, n.d.

Mutahhari, Murtaza. Nahdat al-Mahdi fi Dhaw' Falsafat al-Tarikh. Ed. 2. Beirut: Dar al-Tayyar al-Jadeed, 2006.

Stalin. Al-Madiyyah al-Diyalektikiyah wa-al-Madiyyah al-Tarikhiyah. Damascus: Dar Dimashq, n.d.

Sabhi, Ahmad Mahmud. Fi Falsafat al-Tarikh. Egypt: Mu’assasat al-Thaqafa al-Jami’iyya, 1975.

Siddiqi, Abdul Hamid. Falsafat al-Tarikh. Trans. Al-Jawadi, Kazim. Ed. 2. Kuwait, 1980.